الإسلام وحماية البيئة

أ.د/ آمنة محمد نصير

أستاذ العقيدة والفلسفة

وعميدة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

تمهيد :

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات ، فهو خليفة الله فى أرضه ، والذى أسجد له ملائكته ، ونفخ فيه من روحه ، وأستنطقه فى عالم الذر حتى شهد بأن الله ربه ، أى معبوده الحق ، كما أنه سبحانه وتعالى هو بارئه ومنشئه ، كما سخر له كل مافى السماوات والأرض جميعاً منه ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل معهم الكتب مبشرين ومنذرين بها ليقوم الناس بالقسط ، ليهلك من هلك عن بينةَ ، ويحيى من حيى عن بينةَ ، وحتى لاتكون له حجة بعد الرسل ، وكرمه بالعقل وأنفرد به من دون سائر مخلوقات الله سبحانه وتعالى لكى يزن به ويقدر الأمور من حوله .

وهذا الإنسان بخلقته وفطرته ، وطاقاته وقدراته كرمه الله فى السماء بذكره فى الملأ الأعلى ، وكرمه فى البر والبحر فيقول تعالى : «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علي كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الإسراء / ٧٠)

وفى هذا المعنى يحدثنا ابن كثير : «يخبر الله تعالى بإمتنانه على بنى آدم بتنويهه بفكرهم فى الملأ الأعلى قبل ايجادهم .. وكرامة عظيمةمن الله تعالى لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث الشفاعة ، وحديث موسى عليه السلام : «فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه

من روحه وأسجد له ملائكته» .

مفهوم البيئة :

للبيئة مفهوم واسع واستخدامات متعددة ، فالبيئة هى الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، فرحم الأم بيئة الإنسان الأولى ، والبيت بيئة والمدرسة بيئة والحى الذى نعيش فيه بيئة والكرة الأرضية بيئة والكون كله بيئة .

وقد وضع خبراء البيئة تعريفاً محدداً للبيئة عندما اجتمعوا فى ستوكهولم سنة ١٩٧٢ م وتحت مظلة الأمم المتحدة . وهو «البيئة هى جملة الموارد المادية والاجتماعية المتاحة فى وقت ماوفى مكان لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته» .

وبناء على هذا فالبيئة تضم الموارد الطبيعية كالماء والهواء والتربة ، ومصادر الطاقة والمعادن والنباتات والحيوانات ، وأن أى تلويث لهذه الموارد يسمع ويؤثر فى خارج حدود البلد التى فيها التلوث ، ولعل حادثة انفجار المفاعل الذرى فى «تشرنوبيل» بروسيا هذه الحادثة أو الكارثة أزعجت جميع دول أوروبا والدول الأخرى القريبة التى يمكن أن يصل إليها آثار هذا المفاعل الرهيب ، ولعل سكب النفط وتسربه فى مياه الخليج يهدد كل دول المنطقة بالتلوث ، ومن هنا كانت أهمية التعاون الدولى عبر الأمم المتحدة أو الهيئات العلمية المختلفة فى مواجهة مشكلة التلوث لأننا نعيش فى كوكب واحد ، ومستقبل البشرية مشترك خاصة فى هذه المرحلة التى تشابكت فيها المصالح لسكان هذه الكرة الأرضية بعد تقدم

وسائل المواصلات والاتصالات المختلفة بصورة متقدمة حتى أصبحت الكرة الأرضية وكأنها حارة واحدة ، ولعل مانسمعه فى هذه الفترة عن ثقب الأوزون نتيجة استخدام الغازات فى الصناعة باتت مشكلة عالمية أدت إلى تغيرات مناخية فى أنحاء العالم تهدد الإنسان والحيوان فالبيئة بعناصرها وتفاعلاتها مع بعضها تشكل الكون الذى هو بيئة الإنسان ، والكون بما فيه من مجرات وسدم ومجموعات نجمية ونجوم وكواكب ، وأقمار ومذنبات ونيازك وشهب ... الخ كل هؤلاء يُكوّن نظاماً مترابطاً ومتكاملاً ، وأن هذا النظام الديناميكى تحكمه علاقات وقوى محددة ودقيقة .. ولو اختل بعضها لأثر فى حركة هذه المكونات ، وسبب اضطرابات تهدد كل مافيه أو بعضه ، فإنقلاب مجموعة نجمية عن القوى المتحكمة فى حركتها قد يؤدى إلى انطلاقها فى فضاء الكون التاسع وتبعثر مكوناتها ، أو اصطدامها أو اندماجها ببعضها البعض ، وفى هذا مافيه من خطر على أية حياة قد تكون فى أى من هذه المكونات .

يقول سبحانه وتعالى : «ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم» . (الحج / ٢٢)

«إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً» (فاطر / ٤١) .

ومن الحقائق العلمية الهامة ، أن مجموعتنا الشمسية أن مجرد اختلال كمية الطاقة الشمسية التى تصل إلى سطح الأرض كاف لجعل الأرض حارة إلى حد لايسمح للحياة بالبقاء أو تكون باردة إلى الحد الذى يقضى على الحياة فسبحان الذى خلق كل شئ بميزان دقيق .

عقيدة الاستخلاف وارتباطها بحماية البيئة :

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان أشرف الموجودات ، فهو خليفة الله فى أرضه ، فلا عجب أن يكرم الله الإنسان فى هذه الأرض بما فيها من طاقات وخيرات سخرها له فى البر والبحر من مختلف الألوان والآيات لخلق الله سبحانه وتعالى «أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» (ق / ٦ ـ ٧)

وإذا كان الإنسان مستخلفاً فى هذه الأرض ، فعليه أن يتذكر المالك الحقيقى لهذه الأرض ومن عليها : «وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه» (الحديد / ٧)

ويقول عز من قائل : «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماءاتاكم» (الأنعام / ١٦٥)

ومن مواطن الإستخلاف أيضا إلى جانب الملك والمال ألا يُعْبَد إلا الله : «وإن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون» (يوسف / ٤٠) .

استخلف الله الإنسان فى الأرض وهو عليم بطاقاته ، وقدراته النفسية والعقلية والعملية التى خلقها وإن كانت الملائكة لم تتبين كنه ذلك فى استفهامها من ربها : «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون» (البقرة / ٣٠)

إذن فالإنسان أعظم المخلوقات فى هذا الكون وأثمنها؛لأنه المستخلف من قبل الخالق سبحانه وتعالى ، ولكن للأسف أنه قلما يتصرف على ضوء هذه الحقيقة ، وبما يتناسب معها سواء مع نفسه أو مع من حوله من بشر أو بيئة ، فقد خلقه الخالق العظيم ، وأتقن خلقه مع هذه البيئة المحيطة به على سطح هذه الكرة الأرضية ومثال عظيم على دقة الصنع وتناسبها مع البيئة التى وجد عليها نجده فى تكوينه المتميز مع جاذبية الأرض ، وهو شكل يعتبر ناجحاً بالمقاييس الحيوية وماحدث لرواد الفضاء ، وعدم تناسب البيئة القمرية مع جاذبية الإنسان ، حيث تبلغ جاذبية القمر سدس جاذبية الأرض ، ومغزى ذلك أن الله خلق الإنسان لهذا الكون فى صورة دقيقة متلائم مع البيئة التى يعيش عليها ويعمرها ، ولهذا أوجبت

المسئولية تجاه هذه البيئة رعايتها من منطلق عقيدى وخلقى ومسئولية الحرص على مصلحته ومصالح أجياله القادمة مع هذه البيئة حتى تبقى بصلاحها لحياة الآدمى كما خلقها الخالق له ، وعلى الإنسان ألا ينسى أن أى تدمير لها سواء فى تربتها أو فى هوائها ، أو زرعها ، أو فضائها أو مائها معناه تدمير للإنسان ويقول سبحانه وتعالى «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» (الزمر/٩) .

ويقول تعالى : «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» (البقرة / ١٦٤) .

«ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا» (آل عمران/١٩١) .

وقد وقفت الأمم المتحضرة للدفاع عن البيئة ، وعقدت المؤتمرات لها ، وتقدمت النظريات والأبحاث فى كل مجال لصد الأذى عنها ، ومطالبة الإنسان فى كل مكان بألا يتصرف مع البيئة بمفهوم السيد المطلق ، يتصرف فى افسادها

أو التعامل معها دون مراعاة لحمايتها ، وإن كانت الأرض فى الماضى امتصت هذه التصرفات الغير مسئولة عن سلامة البيئة ، فكانت تمتص هذه الأخطاء نظرا لقلة عدد الناس فى الماضى ، ولذلك كانت قادرة على احتمال تصرفات الإنسان الخاطئة ، وامتصاص أذاها ، ولما تزايد عدد الناس وتفاقمت تصرفاتهم المؤذية تجاه الأرض لم يعد بوسع هذه الأرض احتمال ذلك دون أثر باقٍ ، ولم تعد تستطيع اصلاح العواقب بسرعة كافية لتعويض أثر مايرتكب فى حقها من أخطاء وأذى .

نستخلص مما سبق حقائق هامة حول علاقة الأنسان بالكون فى ضوء الشريعة الإسلامية تعتبر من الضروريات فى حياة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض :ـ

١ ـ علاقة الإنسان المسلم بالبيئة علاقة دينية وخلقية ورد فى شأنها عشرات النصوص من الآيات الكريمة ، ومن السنة الصحيحة وهذا ماسوف نسوقه فى حينه فى ثنايا هذا البحث ، والتى تقرر أصول التعامل مع البيئة من حولنا .

٢ ـ رعاية الإسلام للبيئة من منطلق عقيدى ، وهذا الشأن له مدلول هام على رأسها أن الاخلال أو الإفساد فى الأرض ـ من أى نوع من أنواع الفساد ـ سواء فى البيئة الطبيعية أو الإجتماعية يعتبر مخالف للشرع يعاقب عليه

صاحب ومالك هذا الملك .

٣ ـ البعد الأخلاقى فى التعامل مع البيئة مسألة ضرورية من أجل استقامة الحياة ، وسير نظام الوجود سيرا محكما ملتزما باسبابه ومسبباته ، وأن على الإنسان أن يدرك تمام الادراك أن المالك الحقيقى لهذا الكون هو الله سبحانه وتعالى ، وأننا مستخلفين فيها من قبله تعالى فلابد من أن يراعى الإنسان القوانين الخاصة بحماية هذا الكون والتى فرضت من قبل مالكه الحقيقى سبحانه وتعالى ، اذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة التى يقرر الإسلام فى علاقة الإنسان بالبيئة ، لتجنب كثير من الويلات اللا أخلاقية التى لحقت بالبيئة ، مثل الحروب الذرية والكيماوية التى إستخدمت فى الحروب المختلفة والتاريخ شاهد على عدد كبير من هذه الحروب التى جاءت بمثل هذه الكوارث البعيدة عن الخلق القويم تجاه البيئة والإنسان الذى يقطنها .

٤ ـ ربط الثواب والعقاب لرعاية الإسلام للبيئة ، وتوقيع الجزاء والعقاب لمن يفسد فى الأرض فيقول تعالى : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (محمد/٢١)

٥ ـ الإسلام أكد وحض على مكانة الإنسان العالم الذى يصل بعلمه إلى معرفة آيات الله فى الكون والأرض ، والفلك والطب ... الخ وتوظيف هذا العلم إلى إدراك قيمة نعم الله بهذا التسخير الإلهى للإنسان يقول تعالى :

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» (العنكبوت / ٢٠) .

«فلينظر الإنسان مم خلق» (الطارق / ٥) .

«فلينظر الإنسان إلي طعامه» (عبس / ٢٤) .

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها» (الحج/٤٦) .

«أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» (ق/٦) .

«أو لم يروا إلي الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم» (الشعراء/٧)

٦ - فى ظل هذه العقيدة لابد أن نفهم البيئة فهماً صحيحاً بكل عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة ، مع العمل الجماعى الجاد لحماية هذه البيئة ، وضمان استمرارها موطناً مقبولاً للحياة فى الحاضر المستقبل .

التوزان فى خلق الله للكون :

كرتنا الأرضية مجرد كوكب فى المجموعة الشمسية تتكون كبيئة من عناصر أساسية هى : الهواء ، الماء والقشرة الأرضية ومافى باطنها والنبات ، والحيوان والإنسان والطاقة الشمسية التى تصل إليها ، ويمكن أن نضيف لهذه حركة الأرض حول الشمس وعلاقتها بالقمر .

وتتفاعل هذه العناصر ومايتفرع عنها معاً تفاعلاً معقداً متشابكاً ولكنه محدد ، وينتج عن ذلك كون هذه الكرة بيئة صالحة للحياة ولاستمرارها وهو الأهم .

ومن المتعارف علمياً أن البيئة تتجزأ إلى بيئات أصغر فأصغر وكل بيئة صغيرة ككل بيئة كبيرة مكونة من نفس العناصر ، وهى وإن كانت محدودة الحجم وواضحة الحدود ، تكاد تكون شبه مستقلة ، إلا أنها ليست مستقلة ؛ ذلك لأنها تتأثر بالبيئات من حولها وبالبيئات الأكبر منها والتى تكون هى جزءا منها تتفاعل مع كل هذه تفاعلاً مستمراً ومن أهم مميزات أية بيئة صغرت أم كبرت أنها متزنة إتزاناً مرناً رغم كثرة العوامل والعناصر الداخلة والمؤثرة فيها ولنضرب لذلك مثال ، فلو حدث لأى سبب كان أن قطعت النباتات الباسقة أو ماتت لتغير الإتزان السائد فى تلك البيئة إذ عندما يصل الضوء ساطعاً حيث كان الظل فتتأثر النباتات الصغيرة التى كانت تنمو فتموت وينمو غيرها من الأنواع المحبة للضوء ، وتهرب أو تموت الحيوانات التى تسكن هناك محتمية بالظل وتسكن البيئة حيوانات غيرها من التى لاتعبأ بالضوء أو تفضله . وكم من مرة حدثت كوارث للبيئة فى تناسق تواجد النباتات مم قضى على توازنها وتعايشها مع مافيها من وحدة متكاملة فاتزان أية بيئة تحكمه العوامل التى تحدد البيئة وتحد من طغيان عنصر فيها على الباقين ، وينطق هنا المثل الغربى القائل بأن السلسة لايمكن أن تكون أقوى من أضعف حلقة فيها .

فالتغيرات فى البيئة دورية ، كما تكون فى بعض الأحيان غير منتظمة ، ولكن الغالب أن هذه التغيرات لاتسبب إخلالاً بالإتزان الديناميكى فى البيئة ، ولايحدث التغير الجذرى إلا فى الكوارث ، وحسب حجم الكارثة يمكن بعد فترة من الزمن لاتلبث البيئة أن تصلح آثاره وتعود سيرتها الأولى من التوازن .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ (القمر / ٤٩)

ويقول تعالى : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ (يس / ٤٠) .

﴿وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين﴾

(الدخان / ٣٨) .

﴿ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون﴾

(الدخان / ٣٩) .

﴿خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل علي النهار، ويكور النهار علي الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ألا هو العزيز الغفار﴾ (الزمر / ٥) .

﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ (الأنبياء/٣٣) .

هذا هو خلق الله للبيئة ومافيها من مخلوقات سواء فى الأرض أو فى السماء نجد كل ماخلقه وأبدعه الصانع فيه الاتزان والتوازن ، وان نظرة تأمل ودراسة إلى ماوصل إليه العلم الحديث ، وما قاله أكبر العلماء عن دقة هذا الكون العظيم وكيفية خلقه بهذه الصورة البارعة ، التى إن اختلفت عنها لاختفت الحياة عن هذه البسيطة لتثبت لنا تلك الدراسات أن وراء دقة هذا الكون وروعة نظامه واحد أحد لايشاركه فى ملكه إله آخر «لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون» (الانبياء / ٢٢) .

يقول دكتور . «ا. كريس موريسون» الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك وعضو الجمعية الملكية البريطانية فى كتابه وترجم إلى العربية بعنوان :

«العلم يدعو للإيمان» (Man does not stand alone)

إن الشمس التى هى مصدر الحياة تبلغ درجة حرارة مسطحها ١٢٠٠٠ درجة فهرنهيت . وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفى لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء ، الكافى لا بأكثر منه ، وهذه المسافة كان تغيرها فى خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها .. ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية زادت عشرين درجة فى سنة واحدة فإن كل نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً .

ويستطرد فى كتابه قائلاً : والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلاً فى الثانية ، ولو أن معدل دوراتها كان مثلاً ستة عشر ميلاً فى الثانية فإن بعدنا من الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا . ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالى فقط لكنا تجمدنا ولو أنها زادته بمقدار النصف ، لأصبحنا رمادا من زمن بعيد وسبحان الخالق العظيم الذى خلق كل شئ فقدره أحسن تقدير ﴿إنا كل شئ خلقناه بقدر﴾ (القمر/٤٩)

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ (طه/٥٠)

ويقول أيضا دكتور «موريسون» ويبعد القمر عنا مسافة ٢٤٠٠٠٠٠ ميل ، ويذكرنا المد الذى يحدث مرتين بوجودالقمر والمد الذى يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدما فى بعض الأماكن بل إن قشرة الأرض تنحنى مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمروبيدو لنا أن كل شئ منتظماً لدرجة أننا لاندرك القوة الهائلة التى ترفع مسافة المحيط كلها عدة أقدام ، وتحنى قشرة الأرض التى تبدوا لنا صلبة للغاية ، ولو أن القمر يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً ، بدلا من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلا، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء

متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفى هذه الحالة كانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب وكان المد الذى فى الهواء يحدث أعاصير كل يوم .

وسبحان الخالق العظيم الذى خلق كل هذا وسخره للإنسان المستخلف فى الأرض : «الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» (الأعراف / ٥٤)

يقول تعالى : «أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون» (النمل/٦١)

ويقول تعالى : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون» (الحجر/١٩)

يقول تعالى : «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» (يس/٤٠)

ويقول تعالى : «وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الجاثية/١٣)

ويواصل «د.ا. كريس موريسون» فى حديثه حول خلق الله للكون بهذه الصورة الرائعة والتى نجد القرآن الكريم أشار إليها منذ أن نزل ، لو أن الكرة

الأرضية لم تكن مائلة بهذه الدرجة لكان القطبان فى حالة غسق دائما ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوباً مكدساً فى طريقه قارات من الجليد ، ولتكون أيضاً بركان من الملح الأجاج ، ولتفرطح الإستواء ، وانخفض المحيط بعرض مساحات شاسعة من الأرض ويقلل من هطول المطر فى جميع أرجاء العالم مما ينجم عن ذلك عواقب وخيمة ..

كذلك لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثانى أكسيد الكربون والأكسوجين ولما أمكن وجود حياة النبات أو الإنسان أو الحيوان ، والحقيقة أننا لو أردنا أن نتتبع ماكتب حول دقة صنع الخالق لهذا الكون فى سمائه وأرضه لاحتاج إلى مجلدات ، ولكن سقت هذه الشذرات مما كتبه العلماء وأشار إليها العلماء لكى أوضح حقيقة هامة يجب إدراكها على الإنسان المسلم فى تعامله مع بيئته التى خلقها له الخالق فأحسن خلقها ودقق فى صنعها من أجل أن نصونها ونحميها ، لامن أجل العبث فيها كما يحدث الآن من كوارث بشعة من صنع الإنسان ضد البيئة ومكوناتها . ولذلك فإن الشريعة الإسلامية تربط حماية البيئة بالعقيدة ؛ لأن مكونات البيئة ماهى إلا آيات الله فى أرضه ليرينا الله جلاله وقدرته فيها .

ولذلك فإن رعاية البيئة من الكوارث سواء كانت من فعل عبث الإنسان أو عدم مراعاة أصول التعامل معها ، يجب على البشرية أو توليها حق الرعاية ،

سواء بالعلم والبحث عما يدعم مواردها الطبيعية أو حسن إستعمالها أو طريقة علاج الموارد بالصورة التى لاتؤذى الإنسان فمثلاً المعادن التى تستخرج من الأرض فهى محدودة وعليه أن يتعامل فى إستخراجها بتدبر وحذر ، ومن هنا وجب على الإنسان أن يحسن استغلالها وإستعمالها ، وألا يقف عند مصلحته المباشرة ، وأن ينظر إلى أن هذه البيئة بثرواتها له ولأحفاده من بعده حتى يحرص على توازن هذه الثروة قبل ان يقضى عليها .

كما يجب عليه دائماً البحث عن مصادر جديدة لهذه الثروات ليس فى الأرض اليابسة فقط ، بل تحت البحار والمحيطات وفى باطن الأرض .

كما يجب التفكير دائماً فى إعادة تصنيع والاستفادة من المعادن المصنعة التالفة .

تنظيم الإسلام لقوانين البيئة فى حمايتها وتوزيع ثرواتها :

اعتنى الإسلام بالبيئة بكل معانيها وأبعادها سواء مايخص الأرض وقوانين التعامل معها ، أو علاقة الإنسان بها فى حالة تملكها أو رعايتها والحرص عليها من كل أذى يصيبها نتيجة عبث الإنسان ، مع رعاية العلم والعلماء الذين يسعون للترقى فى العلم لكى ينهضوا بالبيئة بكل أنواعها وأبعادها سواء فيما يخص الإنسان أو مكونات الكون من سماء وأرض وبحار وجبال .. الخ وأفرد فقهاء الإسلام لقوانين الملكية الجماعية والفردية العديد من أبحاثهم واجتهاداتهم

للوصول إلى أفضل استعمال للبيئة وصيانة التعامل معها ، فاهتم الفقهاء بتعريف الملكية ، ومدى التصرف والانتفاع به على وجه شرعى ، وتشمل الملكية الفردية والملكية الجماعية مع التأكيد على حسن الانتفاع الكامل سواء للمالك أو للأرض المملوكة . يقول تعالى : «هو الذي خلق لكم مافى الأرض جميعاً» (البقرة/٢٩) .

ويقول تعالى : «ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» (لقمان/٢٠) .

ويؤكد الفقهاء على أن الإسلام قد قرر الحقوق ومنها حق الملكية محدودة بأوامر الشارع ونواهيه اجتنابا للهوى والنزعات الفردية ، ولكى لاتتخذ هذه الحقوق وسيلة للإضرار بالأفراد أو بالأراضى أو بالبيئة بصورة فيها استبداد بالأفراد أو بالأرض ، ومن هنا كانت الملكية فى الشريعة الإسلامية وظيفة اجتماعية ، وهذه الحقيقة الشرعية تأكيد على علاقة الجماعة بالأرض ومدى عناية الإسلام بتنظيم هذه العلاقة .

ـ على كل إنسان أن يدرك وظيفته الحقيقية فى هذه الارض ، وحقيقة الاستخلاف وليس الاستخفاف أو الاستبداد ، أو عدم رعاية البيئة والحرص عليها كما سخرها لنا خالقها ومالكها الحقيقى الله سبحانه وتعالى : «ولله ملك

السماوات والأرض ومابينهما» (المائدة/١٨) .

ـ ذهبت الشريعة الإسلامية فى تكيفها لحق الملكية إلى أنه ليس حقاً مطلقاً منح لصاحبه ليستأثر به فى تحقيق مصلحته الشخصية على نحو مطلق ، بل صورت هذا الحق على أنه نوع من الخلافة عن المالك الحقيقى وهوالله ، وبذلك فعلى الإنسان أن يراعى فى إستعماله لهذا الحق الغرض والحكمة التى من أجلها استخلفه الله فى ملكه[1] فالفقهاء ينظرون إلى حيازة الشخص للأموال والثروات إنما هى نوع من الخلافة عن المالك الحقيقى لكل ماعلى ظهر الأرض ، وماوصلت إليه يد الإنسان ، وذلك مايدل عليه قوله تعالى : «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (الحديد/٧)

وقوله تعالى : «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» (الأنعام/١٦٥)

ويؤكد الإمام الشاطبى وغيره من الفقهاء على أن الولاية العامة للناس على هذا المال إنما هى خلافة عن مالك السماوات والأرض ومافيها ، وأن اختصاص الإنسان بشئ منه نتيجة سبق استيلائه أو وضع يده لم يكن فى إطار هذه الولاية إلا نتيجة وثمرة لها ويترتب على ذلك أن كون الملكية خلافة يستتبع اعتبارها وظيفة إجتماعية لاحقاً مطلقاً .

١ ـ شرح التلويح على التوضيح للتفتازانى ، الموافقات للشاطبى .

كما يجيز الشارع لولى الأمر أن يتدخل عندما يسئ الناس تدبير أموالهم وذلك عند اختزان المال ، أو ترك الأرض بوراً بدون زراعة أو إهمال فى رعايتها ، كما يجيز له التوصية والإرشاد عن طريق التنمية والإنتاج والتجارة والصناعة والزراعة الملائمة للصالح العام ، حيث يحدث أن يميل مالك الأرض إلى زراعة نوع معين من المحصولات لأنه أكثر ربحاً ، وأن تكون فيها ضرر اجتماعى أو أذى للأرض ، فتوجيه الإنتاج والاستثمار وجهة رشيدة بحسب حاجة المجتمع ومصلحته من المسائل الهامة التى أهتم بها الفقهاء فى أبحاثهم .[١]

فالتعسف فى استخدام حق الملكية فى الأرض مما يؤدى إلى أذى للبيئة أو الواقع الاجتماعى والإقتصادى للإنسان من المسائل الهامة التى اهتمت بها الشريعة الإسلامية ، والتى زخرت بالقيود التى تصون عدم استبداد المالك فيما يملك مما ينتج عنه ضرر بالجيران ، وهى تلك الفكرة التى نادى بها القضاء الفرنسى ، ونص عليها المشرع المصرى فى التقنين المدنى الجديد فى المادة ٨٠٧ ، وقد أورد فقهاء الشريعة الإسلامية كثيراً من التطبيقات لهذه الفكرة حيث ذهبوا إلى أنه لايجوز للمالك أن يتخذ من داره حماماً من شأنه انبعاث الدخان الذى يؤذى الجيران ، وكذلك اذا بنى رجل طاحونة خيل ، وكان من شأنها إصابة الجار بأضرار ناتجة من روائح الخيل ووضم البهائم ومن الأصوات المزعجة الناشئة من إدارة الطاحونة فإنه يؤمر شرعا برفع الطاحونة ومنع الضرر .[٢]

١ ـ الشيخ على الخفيف ـ الملكية فى الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية ٦٧ـ٦٩ .
٢ ـ الفتـــاوى المهدية .

وكذلك إذا غرس المالك أشجاراً فى ملكيته فامتدت أصولها أو فروعها فوق أرض الجار فإن المالك يلزم بإزالة الضرر الناتج منها ، كذلك إذا قام المالك بإقامة بناء من شأه أن يسد نافذة بيت جاره بحيث أنه صار بحال لايقدر على القراءة معها بسبب الظلمة فله أن يكلفه بإزالته للضرر الفاحش .

فالإسلام يقدس إحترام الواقع الاجتماعى للإنسان ويحترم حق الإنسان على أخيه الإنسان سواء فى حرمة الجيران وعدم إيذائهم بأى أذى فى أرضه ، أو ماله أو حق الحياة بدون قلاقل أو مضايقات ، يسببه الجار لجاره ، فعن رسول الله ﷺ : «لايؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه» وأوصى جبريل عليه السلام الرسول ﷺ بالجار حتى كاد أن يورثه» .

ونخلص إلى عدة قواعد وضعتها الشريعة الإسلامية فى تنظيم حماية البيئة الاجتماعية والإقتصادية للإنسان .

ـ حرم الإسلام جمع الأسباب والمصادر التى تؤدى إلى تراكم رؤوس الأموال بإبتزاز الناس أوغشهم أو التحكم فى ضروريات حياتهم حيث حرم التلاعب فى التعامل ، واحتكار المواد الإساسية للتحكم فى أسعارها أو أحتكار سلعة معينة فى الصناعة أو التجارة إذا كان هذا الاحتكار يؤدى إلى الإضرار بالمسلمين ، كما حرم الربا والرشوة واستغلال النفوذ ، وأجاز مصادرة الأموال التى تأتى عن طريق غير مشروع ، وواضح أن جميع هذه الطرق من شأنها تحقيق التوازن والمساواة

والقضاء على الفوراق الكبيرة بين الأفراد . وقد ذهب جانب من الفقه إلى أن الشريعة الإسلامية أجازت إلزام المالك بأن يبيع بأسعار محددة بواسطة المشرع بحيث أنه إذا خالف شروط التسعير الجبرى يعتبر مقترفاً جريمة تستوجب التعزير ؛ لأن القول بغير ذلك فيه ضرر كبير بالمصلحة العامة ، وقد يؤدى إلى التلاعب بأقوات الناس فى الأوقات الحرجة .

ـ كما يقاس على ذلك كل من يمتنع عن بيع ما أوجب ولى الأمر عليه بيعه فإنه يؤمر بالواجب ويعاقب على ترك البيع أو اختزان السلع لاحتكارها وتحقيق ثراء من ورائها .[١]

ـ نظام الميراث فى الإسلام ، كما نظمته الشريعة الإسلامية ، نظام حيكم يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً يحول دون تضخمها ويقضى على تراكمها وتركزها فى أيدى قليلة ، بل على العكس يساعد على أنتشار رؤوس الأموال وتجزئتها إلى ملكيات صغيرة متساوية بين الكافة .

وهذا النظام فى الشريعة الإسلامية يعود على الأرض بالعناية وحسن الرعاية ويكفل لأكبر قاعدة من الورثة فى الحصول على قطع من الأرض تكون مصدر رزقهم فيعتنون بها أكبر عناية ، وهذا التشريع فيه رعاية للبيئة وحماية لها ، من حصرها فى أيدى فرد واحد يتسلط فيها ويستبد بالعباد .

---

١ ـ ابن القيم الجوزية ـ الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية .

ـ ومن رعاية الإسلام للبيئة الاجتماعية نظام الضرائب التى فرضها على فروع النشاط وموارد الدخل المختلفة مثل الخراج والجزية والجمارك وضرائب الزروع والعشور وعروض التجارة ومختلف نواحى الإقتصاد بما يكفل للعدالة الاجتماعية لجميع الناس ، ويكون مردود ذلك الخير والنماء للبيئة من حولنا بأشكالها المختلفة.

ـ أوجب الإسلام على الأغنياء الإنفاق على أقاربهم من العاجزين ، كما أوجب على أهل كل حى أن يعيشوا بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد إلى درجة أن ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى مسئولية البلد الذى يموت أحد أفراده جوعاً فيؤدى أهلها جميعاً الدية متضامنين كأنهم شركاء فى موته .[1]

ـ أوجب الإسلام الرعاية والانفاق من بيت المال على الشيخ الزّمن (العاجز عن الكسب)والشيخ الفانى وغيرهما . ولم يفرق الإسلام فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين .

ـ نظام الاقتطاع والحجز من الأموال مثل زكاة الفطر وضحايا الأعياد والهدى الذى يستحب للحجاج أسباباً هامة فى تقييد الثروات الفردية باعتبار بعضها يقترب من منزلة الفرض ، مثل زكاة الفطر بحيث تكون حصيلته مرتفعة .

ـ كماأن الكفارات فى الإسلام جزاء بعض الخطايا والمعاصى تحدث تأثيراً غير مباشر على نظام الأموال مثـل كفـارة اليمين، وكفارة الإفطار ، وكفارة الظهار ،

---

١ ـ أنظر / محمد يوسف موسى ـ النظرة الاجتماعية للشريعة الإسلامية .

وبعض كفارات الحج حيث تتمثل هذه الكفارات فى إخراج فدية من الأموال أو المحاصيل أو التصدق على الفقراء .

يتبين لنا مما سبق أن علاقة الإسلام بالبيئة فى باب الملكية له بناء عقيدى خاص ، من حيث أن الملكية الحقيقية لله الخالق الواحد ، وأن الاستخلاف فيها يتم بتشريعات قويمة راعى فيها الخالق الدقة والعدالة بين البشر حتى يسود البناء الهادف لتنمية الموارد والنهوض بالبيئة ، فأقام الشارع الحدود لحق التملك ومايشمله من أموال وثروات ووضع له الضوابط التى من شأنها تقليل الفوارق بين طبقات المجتمع ، مع الحق الشرعى فى مصادرة أموال الأغنياء الغير مشروعة والناشئة عن الاستثمار المغالى فيه أو من مصدر حرام أو فيه أذى لأفراد المجتمع ، يصادر لصالح الدولة ومن ثم يعود بالنفع على مستحقيه من المحتاجين والفقراء .

ويخبرنا الشيخ الخفيف عن هذه القاعدة الشرعية من أن الشرع أباح للإمام أن يتصرف فى توزيع الأموال العامة على وجه يحقق التوازن الاقتصادى بين الطبقات ، ولو ادى ذلك إلى أن يخص ببعض الأموال طبقة دون أخرى ، حيث سَن ذلك الرسول ﷺ بوحى من الله تعالى حينما منح جميع أموال الفيئ من بنى النضير للمهاجرين خاصة ولرجلين فقيرين من الانصار، ليقرب بذلك بين ثروات الأنصار ، ويحقق شيئاً من التوازن فى ملكية الأموال بين هذين الفريقين اللذين كان يتألف منهما المجتمع الإسلامى فى ذاك الوقت .[1]

١ ـ الشيخ على الخفيف ـ الملكية فى الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية ص٢٩ ـ ٣٠.

ومن الجدير بالذكر أن أشير على رعاية الإسلام لنظام الصدقات المستحبة ، والذى فيها تنمية للموارد البشرية وحمايتها من الضياع ، بل وربما من طريق التشرد والإجرام فهذه الصدقات تشفى النفس المحتاجة من الحقد على الأغنياء كما فيها صيانة للفقير والمحتاج من الانهيار لشدة العوز ، وتفتح باب الارتزاق وربما يخرج بهذه الصدقة إلى مستوى كفاية الحاجة .

فقد حبب الإسلام إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء حتى أن الله نعت الفقراء بعياله ليؤكد على عظم العطاء لهم ، ثم جعل اكتناز الأموال وعدم إنفاقها فى سبيل الله من كبائر المعاصى يقول عز من قائل : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون﴾ (التوبة/٣٥) .

فالإسلام حرم كنز ثروات الأرض وحجبها عن استفادة الإنسان بها كل حسب موقفه سواء فى إعطاء الفقراء أو تنميتها بما يعود على رخاء البشرية وبالتالى ينعكس هذا على رعاية الإنسان بمتطلبات البيئة من تنمية وازدهار .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى الإسلام يربى الإنسان المسلم على التعود

على البعد عن الأنانية والبخل والشح وهى أمراض نفسية بشرية إذا عولج منها الإنسان يصبح إنساناً سوياً ، والإنسان السوى يكون معطاءاً ومعتدلاً فى التعامل مع البيئة الإنسانية من حوله ومع موارد الطبيعة التى يرزق الله الإنسان منها الكثير من ثروات الأرض أو البحر وهى ثروات هائلة تستطيع إسعاد البشرية إذا حسن استغلالها والتعامل معها بالقانون الإلهى الذى يحرم الإسراف والبزخ فى أى أمر من أمور الحياة .

تلويث الأرض وموقف الإسلام منه :

الأرض تشكل أقل من ثلث مساحة الكرة الأرضية ، وأن جزءاً لايستهان به من هذه الأرض غير صالح لمعيشة الإنسان ، والجزء الصالح منها بدرجة جيدة لمعيشته فهو صغير نسبياً إذا قيس بالزيادة السكانية التى نراها من حولنا ، والأرض باختصار هى موطن الحياة الأساسية للإنسان فهى تمده بالمأكل والمشرب والملبس ولذا وجب عليه أن يعرف حقها وقدرها وأن يصونها من عوادية عليها .

وأن يركز على مافيها من نعم وخيرات أودعها الخالق له فيقول سبحانه وتعالى : «فلينظر الإنسان إلي طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ، متاعا لكم ولأنعامكم» (عبس / ٢٤ ـ ٣٢) .

ثم يبين الخالق سبحانه فى صيغة هذا التساؤل كيف خلق النعم للإنسان :

«أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت ، وإلي السماء كيف رفعت ، وإلي الجبال كيف نصبت وإلي الأرض كيف سطحت» (الغاشية / ١٧ـ٢٠)

ثم يلتفت نظر المخلوقين إلى أهمية آيات الخلق والإبداع الإلهى سواء خلق الإنسان أو خلق الأرض فيقول سبحانه : «وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات ٢٠/٢١) .

ويقول تعالى : «أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شئ» (الأعراف/١٨٥) .

«أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصره وذكرى لكل عبد منيب» (ق ٦/٨) .

«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (الملك / ١٥) .

«وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه إن ذلك لآيات لقوم يتفكرون» . (الجاثية /١٣) .

هكذا خلق الله الكون بسمائه وأرضه لكى يستغله الإنسان أحسن استغلال ، ويسعى فيه بالعلم النافع الذى كرم الإسلام به الإنسان وأعلى من مكانتهم حتى جعلهم ورثة الأنبياء ، ولذلك حمل العلماء أمانة صيانة هذه البيئة من الأذى وتقويم ماينفعها ويعوض مايصيبها من سوء استخدام الإنسان ، كما أوجب عليهم التعامل مع ماسخر الله للناس فى هذا الكون وفق القوانين والسنن التى تحكمها ، وهذا بالضرورة يحمل الإنسان على معرفة هذه القوانين على أسس علمية ومعرفة صحيحة .

أن تنبيه الحق تعالى فى الايات السابقة له دلالة عظيمة لم تقف عند حد لفت النظر فحسب بل ليرينا مدى الترابط الوثيق بين الإنسان والبيئة من حوله ومايجب على الإنسان من التحلى بآداب وأخلاق التعامل معها .

ولكن من المؤسف حقاً أن هذا الإنسان لم يراع حق بيئته «قتل الإنسان ما أكفره» (عبس/١٧)

فإن تصرفاته فى الواقع العملى توحى بعكس ما أراده له الخالق فى استخلافه لهذا الكون وربط هذه الرابطة بعقيدة العبادة لله وجاءت سلسة التصرفات الفردية والجماعية فى إفساد الأرض وجعلها أقل قدرة على أحتضان حياة الإنسان نتيجة إخلال التعامل معها مما إدى إلى خلل الاتزان البيئ الذى خلقها الله عليه .

أخذ الأنسان فى استقطاع مساحات واسعة من البيئة الطبيعية والزراعية من أجل امتداد المدن وشق الطرقات وبناء المطارات وإقامة المصانع وحفر المناجم وغيره من المنشآت التى جارت على المساحات الخضراء التى هى مصدر الرزق ومنحة الخالق للمخلوقين : «فلينظر الإنسان إلي طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ، متاعا لكم ولأنعامكم» (عبس / ٢٤ ـ ٣٢) .

ويقول تعالى : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصره وذكري لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج» (ق/٧ـ١١) .

ويقول تعالى : «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون» (يس ٣٢) ويحذر خالق الأرض سبحانه وتعالى الإنسان من الانسياق والتمادى فى الغرور فى تعامله مع الأرض .

يقول تعالى : «وما أنتم بمعجزين في الأرض ومالكم من

دون الله من ولي ولا نصير» (الشورى/٣١) .

ويؤكد القرآن الكريم على مكانة الأرض وقيمتها وأنها آية من آيات الله : «ومن اياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى أنه على كل شئ قدير» (فصلت/٣٩)

ويقول تعالى : «يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور» (سبأ/٢)

ويذكر الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه هو وحده الرازق فيقول تعالى : «يائيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون» (فاطر / ٣)

ويحفل القرآن الكريم بعشرات الآيات التى توضح مكانة الأرض وماتحتوي ويجب على الإنسان أن يراعيها ويصون نعمة الخالق الذى خلقها له بضمير وعناية لحاضره ولمن يأتى من بعده من ذريته .

ولكن تزايد أعداد البشر والتطور التكنولوجى انعكس كل هذا على البيئة ، وظهرت أنانية الإنسان فى الرغبة فى الكسب السريع فى النمو فى المشاريع

الكبيرة التى جاءت على حساب الأرض الخضراء ، ثم اتضح بعد ذلك السلبيات الجانبية الكثيرة لهذه المشاريع فى أفساد البيئة وعدم صلاحيتها فى مد الإنسان بالحياة الرغدة التى أرداها له الخالق سبحانه وتعالى : «وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين» (الحجر/٢٠) «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شئ موزون» (الحجر/١٩) ولكن الإنسان أخل بهذا الوزن والتوازن فى البيئة التى خلقها الله عليها .

ـ تلويث الأرض بالفضلات المعدنية والكيماوية والإشعاعية المتزايدة باستمرار مع تراكمها صارت تؤثر فى تركيب التربة الكميائى ذات الخلق الموزون ، وقد أثبتت الأبحاث فى مجالات علم النبات أن بعض النباتات تختزن فى خلاياها وأنسجتها كميات من المواد الكيماوية السامة التى تمتصها من التربة الملوثة وهذه تنتقل بدورها إلى الحيوان والإنسان وتتجمع فى أجسامها مسببة سلسلة من الأعراض المرضية التى انتقلت إلى الإنسان عبر أكله للحوم الحيوان والطيور .

ولولا رحمة ربك لأصاب البشرية فزع كبير مما نحن فيه ، فقد أودع فى الإنسان جهاز المناعة لمقاومة هذه السموم الجارفة والزاحفة على الإنسان من إستهتار بيئته والعبث بمقدرات صحته وطعامه وشرابه وهو لايدرى أنه يدمر نفسه وأجياله القادمة .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ (الدخان/ ٣٨ـ٣٩) .

فجهل الإنسان وعدم التعامل مع البيئة من منطلق عقيدى وتصور نفسه السيد الأوحد الذى لايسأل عما يفعل فيما أنعم الله عليه بهذه الأرض جعله يتصرف معها بغطرسة وعدم مراعاة للقيم الإيمانية فى علاقته بهذه الأرض المستخلف عليها .

يقول الحق سبحانه : ﴿ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فائني تؤفكون﴾ (فاطر/٣) .

وتحض السنة النبوية على التعامل مع البيئة بصورة نظيفة وتمنعه من إلقاء الفضلات أو الأذى الذى يؤثر فى نظافتها ونقائها . (عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اتقوا اللاعنين قالوا : وما اللاعنان يارسول الله قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو ظلهم) .

وعلى الرغم من بداوة الحياة وبساطتها وافتقادها مقومات الحضارة الكانية فى هذا المضمار ، ومع ذلك كان تحذيره عليه أفضل الصلاة والسلام للناس من قضاء حاجتهم فى طريق المارة أو فى مكان ظليل حتى لايحبس الناس عن الاستفادة به .

كما حذر ﷺ من قضاء الحاجة فى مصادر المياة ويلوثها كما يحدث للنيل أو غيره من الترع والقنوات .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «لايبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل منه» .

وكما نهى ﷺ عن تلويث مصادر المياه ، أو قضاء الحاجة فى طريق المارة ، شدد على من يقطع شجرة أو يحارب الخضرة .

عن عبدالله بن حبشى قال ، قال رسول الله ﷺ : «من قطع سِدْرَة صوب الله رأسه فى النار» .

سئل ابو داود عن معنى الحديث : فقال هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرَة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه فى النار ، (أبوداود جـ٤ /ص٣٦١) .

ثم يحض ﷺ على الغرس والزرع عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : «مامن مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنساناً أو بهيمة إلا كان له به صدقة» (رواه البخارى ومسلم والترمذى) .

ليس هذا فحسب بل يأمر المسلم : «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يقوم حتى يغرسها فليغرسها» (رواه أحمد) .

ثم إماطة الأذى عن الطريق ولو برفع حجر فله أجر .

ففى الحديث الصحيح : «بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذى عن الطريق صدقة» رواه البخارى .

الزحف الصحروای :

من مشاكل البيئة الخطيرة الزحف الصحروای ، ومعناه زيادة رقعة الأراضى القاحلة على الأراضى الخضراء ، ويرى بعض العلماء ومنهم بيفريل ميفر أن مساحة الأراضى القاحلة جزئياً وكلياً فى العالم تبلغ ٣٦٪ من مساحة الأراضى الإجمالية ، وهذه نسبة مرتفعة فما بالك والزحف الصحروای فى ازدياد ، وهو يعتبر من أكبر نكبات المجاعة التى يعانى منها سكان قارة أفريقيا ، ومناطق كثيرة من بلاد العالم .

وقد برزت هذه القضية فى مؤتمر هيئة الأمم لدراسة ظاهرة الزحف الصحروای الذى عقد فى نيروبى عاصمة كينيا فى سبتمبر سنة ١٩٧٧ م .

ومن التقارير العلمية التى قدمت فى هذا المؤتمر تبين أنه خلال نصف القرن الماضى ابتلعت الصحراء الكبرى فى أفريقيا ٦٥٠٠٠٠(ستمائة وخمسين ألف كيلو متر مربع) من الأراضى والمراعى المتاخمة لحدود الصحراء الجنوبية .

كما تبين من صور الأقمار الصناعية أن الصحراء تزحف على دلتا النيل الخصبة بمعدل ١٣ كيلو متر فى السنة فإذا عرفنا أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر لاتزيد عن ٤٪ من مجموع مساحة الدولة اتضح مدى فداحة

الخطر الذى يهددنا ، أضف إلى ذلك نسبة تزايد السكان بصورة خطيرة .

وفى السودان الذى ينظر إليه على أنه يمتلك أكبر مصدر للغذاء فى مجموعة الدول العربية تشكو من قلة الغذاء ، وفى الجزائر تعتبر مهددة بزحف الصحراء عليها وعلى أراضيها الزراعية .

وفى أقليم راجستان فى الهند ، تزايد الغطاء الرملى بنسبة ٨٪ فى مدى ثمانية عشر عاماً .

وفى تشيلى تحولت أراضى كانت مراعى جيدة إلى صحارى لاتحوى غير شجر الصبار ، وبعض العشب لاقيمة لها إلا لغذاء الماعز ، وهذه نماذج من كثير فى أكبر قضية تحاصر البيئة بالقتل والدمار ، وأنه على الأمم أن تقاومها بوقف التصحر بالوسائل العلمية المختلفة .

ومن هنا يتضح رعاية الإسلام للأرض ولزراعتها حتى وإن قامت الساعة وفى يد أحد الناس فسيلة فإن استطاع أن لايقوم حتى يغرسها لتؤكد على رعاية الإسلام لإستمرار حياة الأرض مخضرة بالخيرات التى تمد الإنسان بالحياة إلى آخر لحظة من عمر البشرية .

تلويث المياه رغم ندرتها :

مشكلة المياة من أعقد المشاكل التى يتنازع حولها الآن الدول ، لأن الماء محدود إلى حد كبير على هذه الكرة الأرضية ومعظم الماء فى هذه الكرة الأرضية

مالح وغير صالح لإستعمال الإنسان لا فى الشراب ولا فى الصناعة ولا فى الرى .

ومن هنا فإنه من المحتم أن تعيد الدول بأفرادها أصول التعامل الجيد لهذا المصدر الذى فيه حياة كل شئ .

والإسلام فى منهجه فى التعامل مع جميع ألوان الحياة هو البعد عن الإسراف والتبذير حتى أن الله سبحانه وتعالى شبه المبذرين بإخوان الشياطين .

وقد عرف النبى ﷺ عن سفينة قال : «كان النبى ﷺ يتوضأ ويغتسل بالصاع» أخرجه (الدرامى) وقد بين القرآن الكريم فى عشرات الآيات تكوين المياة وأهميته فى إحياء الأرض وانباتها وجعل من الماء كل شئ حى ، يقول تعالى : «وجعلنا من الماء كل شئ حي» (الأنبياء/ ٣٠)

«هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون» (النحل/ ١٠) .

«وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً» (النبأ/ ١٤ـ١٥) .

«ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن

من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» (النور/٤٣) .

«وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا علي ذهاب به لقادرون» (المؤمنون/١٨) .

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير» (الحج/٦٣)

«الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار» (ابراهيم/٣٢)

«وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين» (الحجر/٢٢) .

ربط الإيمان بالنظافة فى الإسلام وأثر ذلك علي البيئة :

ربط الإسلام الإيمان بالنظافة ، ومن أركان الإسلام مثل الصلاة والحج لايتم إلا بالطهارة والنظافة بالماء الطاهر النظيف الخالى من أى نجس يلحق به ، وهذه العقيدة فى الإسلام لأعظم تدريب وعبره لرعاية مصادر المياة من تلويثها والعناية بالحفاظ عليها وتركها نظيفة ، ثم عناية الإسلام بالعلم والعلماء يعتبر أكبر دليل على حث الإسلام فى السير قدماً فى الأبحاث العلمية لجميع مصادر البيئة ومن بينها العناية بتنقية المياه ، وتحليتها واستخدام الوسائل العلمية لهذا الغرض ، حتى

تكون صالحة للإنسان الذى استخلفه الله سبحانه وتعالى وكرمه فى البر والبحر وأعطاه كل مقومات الحياة لكى تستمر رحلة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا رباط عظيم بين الإنسان وبيئته سواء الفرد أو الجماعة أو الدولة ، فالطهارة فى الإسلام من الأحداث غسلاً ووضوءاً وتيمماً أمر هام وأساس فى العقيدة الإسلامية ولاتتم العبادة إلا بها ، كما سن الإسلام الغسل لصلاة الجمعة ، والغسل لصلاة العيدين وتعديل الهيئة ونظافة الثياب ، والبعد عن كل مايدعو إلى النفور عند لقاء الأخرين ، وما تتأذى منه الملائكة .

روى مسلم والترمذى عن أبى مالك الأشعرى قال : (قال رسول الله ﷺ :ـ الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد له تملأن مابين السماء والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك) .

وفى حديث آخر على أهمية النظافة بالماء وربطها بالإيمان : قال ﷺ : (تخللوا فإنه نظافة ، والنظافة تدعو إلى لإيمان ، والإيمان مع صاحبه فى الجنة) (رواه الطبرانى) .

والأطعمة ذات الروائح النفاذة والآثار الغليظة كاللحم والسمك وغيرها يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمال نظافتها ، فإن التنظف منها ضرورة لحفظ

الكرامة الخاصة والآداب العامة .

روى أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الشيطان حساس لحاس ، فاحذوره على أنفسكم ، من بات وفى يده ريح غَمَرٍ فأصابه شئ فلا يلومن إلا نفسه) أخرجه الترمذى : (الغمر : زهومة اللحم وريحته) . والحديث «نظفوا أفواهكم فإنها طرق القرآن» .

والنظافة تشمل النظافة المادية من القذارة المحسوسة والقذارة المعنوية الناتجة من الفحش والغيبة والنميمة وأكل الحرام وتطهير السان من جميع النجاسات .

وقد وردت آثار تفيد وتؤكد على أن الجراثيم إنما تجد مرتعاً خصباً فى الأيدى والأفواه الغير نظيفة ، وأوصت بالتحرز من غوائلها .

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثوماً أو بصلاً أن يحضر المجتمعات ذاك الفرد الذى أكلها تحرزاً من نتن الأفواه من هذه الأطعمه حتى لايؤذى وينفر من حوله ، وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة فى المسجد عمن تناول هذه الأطعمة .

عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : (من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته) .

كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو

جسمهم كريهة وهذا الأمر فيه صيانة للمريض والسليم على السواء .

ويوصى الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة يقول تعالى : «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» ، الاعراف / ٣١ .

واعتنى الإسلام بنظافة المساجد والبيوت وتجميلها وأكد على تخلية البيوت من الفضلات والقمامات حتى لاتكون مصدراً للحشرات وسبباً للعلل ، وكان اليهود يفرطون فى هذا الأمر ، فحذر المسلمين من التشبه بهم .

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولاتشبهوا باليهود) .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط برجال ثقات عن أبى هريرة : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سل سخيمته على طريق من طرق الناس فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) .

وأخرج الطبرانى فى الكبير بإسناد حسنة الحافظ المنذرى عن حذيفة بن أسيد أن النبى ﷺ قال : «من آذى المسلمين فى طرقهم وجب عليه لعنتهم» (رواه البيهقى) .

فإماطة الأذى ورفعه عن الطريق والاقتصاد فى إستخدام الماء والنهى المشدد

على من تسول له نفسه بأذى البيئة من حوله من قضاء الحاجة إلى عف اليد واللسان تعتبر الضروريات فى الإسلام ، كذلك حذر من العبث وحسن التعامل مع المياة بجميع مصادرها ، وعدم الإسراف فى إستخدامها ؛ لأن الماء الذى جعل الله كل شئ منها حتى تعتبر من الأمور النادرة الغالية ، فقد شدد الإسلام إلى من يسئ إستخدامها ولكن الإنسان للأسف رغم هذا التشريع ، وندرة المياه الصالحة للشرب حيث تحولت بحيرات عدة وأنهار أكثر عدداً إلى مجارى ميتة لم تعد صالحة للشرب منها أو أن يستعملها فى صناعة أو حتى يستحم فيها ، ومازال الإنسان يمعن فى الإساءة إلى بيئته والإخلال بالتوازن فيها ، وهذا بطبيعة الحال أنعكس على الكائنات الحية التى كانت تعمر هذه الأنهار والبحيرات ، وكانت تمثل مصدراً هاماً للغذاء ، أضف إلى هذا بموت الكائنات الحية ، حل محلها البكتريا وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة الضارة ، وانتقل التلويث إلى ضفاف تلك المصادر مؤثرة فيها وفيما يعيش عليها من كائنات .. حتى باتت المدن والمجتمعات التى تعيش فيها مهددة بهذا الخلل البيئ العنيف وحتى وإن ظهر الآن فى بعض الدول مايعرف بمصانع أو منشآت معالجة المياه ، وهى أجهزة ومنشآت ضخمة تعتمد على أسس علمية كميائية وتكلف مبالغ باهظة ولكنها السبيل الوحيد المجدى إلى الآن ـ حسب علمى ـ لمنع زيادة تلويث المياه .

ومن الأمور التى تحمد فى هذه المرحلة وجود يقظة كبيرة فإتخاذ الإجراءات والتشريعات القانونية لوقف الإستهتار بمقدرات ومكونات البيئة حول الإنسان ،

ومن هذه التشريعات الخاصة فى بعض البلاد منع المصانع والمؤسسات من تلويث مصادر المياه وتجبرها على معالجة الماء المستهلك فيها قبل إمراره إلى مجارى المياة الطبيعية ، ولايقتصر التلوث على مصادر المياة العذبة الصالحة لإستعمال الإنسان ، بل يتعداه إلى البحار والمحيطات ، مع أن مياه البحار مالحة ولايستطيع الإنسان إستعمالها مباشرة إلا أنها مصدر معظم بخار الماء الموجود فى الجو ، ومنه تكون السحب وتهطل الأمطار والثلوج وتجرى الأنهار وتتفجر الينابيع ، ويصور هذه الحقيقة العلمية فى مصادر الماء القرآن الكريم فى هذه الايات :

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ (النور/٤٣) .

﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون﴾ (الأعراف / ٥٧) .

﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج

من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون» ٠الروم/٤٨) .

نماذج من ملوثات البيئة :

ظهرت فى هذ المرحلة ملوثات للبيئة نتيجة الحروب ، والمعارك التى نشبت فى منطقة الشرق الأوسط ، كما حدث مؤخراً فى حرب الخليج وتسرب النفط من الناقلات العملاقة ، أو من جراء الكوارث التى تلحق بهذه الناقلات ، وتسرب النفط الذى يطفو فوق سطح البحر لأن النفط أقل كثافة من الماء ، ولأنه قاتل للكائنات الحية بسبب موت «البلانكتون» الهائم على السطح ، «والبلانكتون» هذا هو دقائق الكائنات الحية النباتية والحيوانية الهائمة قرب سطح البحر ، وهو الغذاء الرئيسى للأسماك والحيوانات البحرية الأخرى إلى جانب أهميته كيميائياً من إستخلاص جزء ثانى أكسيد الكربون من الجو ، العامل الهام فى بقاء نسب غازات الهواء ثابتة ، وفى حالة قتل عدد كبير من هذا «البلانكتون» بالتلويث تختل هذه النسب ، وهذا يؤدى إلى خطر داهم فى حق الحياة برمتها .

كما لاننسى أخطار الأسلحة الكيميائية والمواد المشعة ومخلفاتها والتى أنتشرت فى هذه الفترة بصورة أصبحت تهدد البيئة ومن عليها من جميع الكائنات الحية بشرية وثروة حيوانية ومائية ، ولذا ارتفعت أصوات العلماء بمطالبة الإنسان بالكف عن التمادى وتقييد هذه الأبحاث وقصرها على ماينفع

الناس فقط والتركيز على أهمية البحار والمحيطات لأنها مصادر هامة جداً لثروات عظيمة لم تستغل بعد الإستغلال الصحيح ، يقول عز من قائل فى كتابه الحكيم الذى يصفه ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ (الإسراء/١٠٥) .

وفى التنبيه على أهمية ثروة البحار يقول تعالى : ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليه تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون﴾ (النحل/١٤) .

وبعد هذ الجولة حول مكونات البيئة ورعاية الإسلام لها ، حيث ربط هذه الرعاية برباط العقيدة ، وهى أن يدرك الإنسان وظيفته فى هذا الكون الذى خلقه الخالق لكى يكون أمانة فى أعناق المستخلفين فى الأرض ، وعلى هؤلاء المستخلفين أن يصلوا إلى أعلى درجات العلم والارتقاء لفهم هذا الكون وقوانينه ، وأن يتعاملوا مع هذا الكوكب بقواعد وأخلاق المستخلف من قبل الله سبحانه حتى يستحق هذا التكليف بالاستخلاف والتكريم بالعلم .

على الإنسان أن يدرك فى تعامله مع البيئة أن هذا الكون كله فى سمائه وأرضه خاضع لسلطان الله ، وأن الله سبحانه وتعالى سخره للإنسان ، ومن ثم عليه أن يرقى ويترقى فى اكتشاف قوانين هذا الكون عن طريق العلم الذى أنزله الإسلام منزلة ورثة الأنبياء وبه كرم الله آدم وذريته وأسجد له ملائكته ، وفاخر به

فى الملأ الأعلى .

فالحرص على البيئة فى التعامل والرقى فى درجة العلم بمكوناتها والتعامل معها على هذا الأساس كل هذا يعتبر من باب المقدسات فى الشريعة الإسلامية فى قوانينها المختلفة .

وختاماً لهذه الجولة أقول أن حماية البيئة فى الشريعة الإسلامية واجب مقدس فرضه الخالق للإنسان الذى استخلفه فيه ، وليس نابع من توصيات مؤتمر ينتهى بانفضاضه ، ولامن صيحة دوى بها صوت عالم ربما بقوة هذا الصوت ولايصل إلى خافتاً أو ربما لايصل ، بل هو تشريع إلهى ملزم به خلقه ، ويحاسبهم على تركه أو إهماله ، لأن البيئة بآياتها المختلفة هى من خلق الخالق الذى خلق كل شئ فقدره تقديراً .

والحمد لله أولاً وآخـــراً ،،

أ.د/ آمنة محمد نصير
أستاذ العقيدة والفلسفة
وعميدة كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية